تحية إلى فيليتسيا لانغر

جواد بولس*

# فيليتسيا... نجم "سهيل"

فلسطين لا تنسى جراحها ولا الذين أضاؤوا عتمها بشموع الحرية. أبناؤها يتذكرون الإنسانة التي زرعت الفلّ على شرفات آمالهم، وصرخت في ليل كله ليل، "أولئك إخواني"، ومضت في طريق غير آمن تخيط من أجلهم قلائد للحرية، وتبني للكرامة قلاعاً، وللعزة سدوداً.

فيليتسيا لانغر محامية في رقّة الورد وعناد شوكه، أُلقيت عليها واحدة من أصعب المهمات وأخطرها في زمن الهزيمة: مهمة الدفاع عن أسرى أمام قضاء عسكري لم يعرف العدل يوماً، وفي حضرة جنود كانوا يستقبلونها كـ "خائنة" لشعبها وهم مدججون بحقد بهيمي وبنشوة سكرى وبعربدة المنتصرين الحمقاء.

سمعت باسمها قبل وصولي، في بداية سبعينيات القرن الماضي، إلى القدس لأنضم طالباً إلى كلية الحقوق في الجامعة العبرية، وعرفتها قبل أن ألتقيها. كانت امرأة جميلة، شقراء، جبينها عريض يحرس عينين حالمتين تخبّئان وجعاً وحنيناً.. وجهها كوجوه البولنديات، يذكّر بثلج ذلك البلد، تكسوه حمرة خفيفة كالفجر. كانت تحب الجمال والشعر والبشر.

أحببتها أنا وكثيرون من زملائي في الجامعة، لكن في المقابل كان اسمها يستفز الطلاب العنصريين الإسرائيليين، والبعض منهم كان يشتمها بأقذع المسبّات والأوصاف النابية.

شهدتْ تلك الأعوام، وكانت أواسط وأواخر السبعينيات، أعنف الصدامات بين الطلاب العرب وحلفائهم من الطلاب الإسرائيليين التقدميين، وبين الطلاب الإسرائيليين العنصريين الهمجيين. كنا نهتف ضد الاحتلال الإسرائيلي، ونؤكد أن "الفاشية لن تمر". بدأنا، كطلبة ناشطين، التعرف إلى قيادات ذلك الزمن؛ فقابلنا "التوفيقَين" و"الإميلَين" ورفاقهما. بعض اللقاءات جرى في مكتب المحامية فيليتسيا فصرنا أقرب

* محامٍ فلسطيني متخصص بقضايا الأسرى.

إليها، وعرفنا لماذا أحببناها قبل أن نلتقيها. كانت مخلوقة مفعمة بالإنسانية، ومطبوعة بحس أمومة آسر.

من حلكة الاحتلال وغطرسة قوته المنفلتة من عقالها، أطلّت فيليتسيا كنجم "سهيل"، وهي الناجية من فك الوحش النازي الذي غزا وطنها وقتل ملايين البشر، والحاملة لخبرة مريرة عنوانها: كيف تُغتصب الإنسانية ويستقوي غاصبها بصمت الضمير واللسان، فيتحول صمت البشر إلى مهاميز لبساطير المحتلين والغاصبين الساعين لقهر الأحرار والدوس على حقوق الإنسان.

فيليتسيا الحرة والإنسانة اختارت أن تقف في صف الضحية وتذود عنها، ومضت إلى حيث المقموعون يتعذبون، فسمعت أنينهم، وزمجرت في وجه الجلاد قائلة: احتلالك يا إسرائيل أسود ومقيت، فها أنا، بأم عيني شاهدة على أجساد تمزقها سياطكم، وعيون تفقؤها قبضاتكم.

محامية تحولت إلى عنوان للفلسطينيين، تزورهم في معتقلاتهم وتدافع عنهم. كانت مثابرة كالمحبّة نفسها، لا تعرف يأساً ولا كللاً: تشاهد، وتساند، وتوثّق، وتكتب، وتنشر، وتفضح.

في البداية، رفض العالم تصديقها، وحاولت إسرائيل، بكامل عدّتها وسطوتها، أن تكذّبها وتهزأ بها وتشكك في رواياتها، لكنها، وهي سليلة مَن سَقوا الفولاذ، آمنت فعاندت فانتصرت. كانت فيليتسيا لانغر سيفاً من نار ونور.

بعد فترة تدريب قصيرة في مكتب شيخ المحامين حنّا نقارة انتقلتُ إلى مكتب فيليتسيا لأكمل تدريبي قبل أن أجاز محامياً. وفي بداية الثمانينيات صرت جزءاً من مكتبها الذي لم يكن مجرد مكتب تجتمع فيه القيادات، بل، هكذا تبيّن لي، كان عنوان كل مظلوم فلسطيني، وكل قضية مفصلية تتكون من معادلة شقّها الأول اضطهاد وقمع وظلم الاحتلال الإسرائيلي، وشقّها الثاني ضحية فلسطينية متظلمة. في مكتبها بدأت أتعرف إلى معنى الوقوف في وجه المحتل ومقارعته. عندها قابلت مَن صاروا إخوتي وكانوا، من قبل، إخوتها: بسام الشكعة، ووحيد الحمد الله، وبشير البرغوثي، وإبراهيم الدقاق، وجورج حزبون، وخلدون وعباس عبد الحق، وجريس خوري، وفهد القواسمة، وكريم خلف، وتيسير العاروري، ومحمد ملحم، وآلافاً مؤلفة من زنابق وورود فلسطين المقاومة.

رافقتها خمسة أعوام أو أكثر. كانت تخاطب محدّثيها بلغة عربية تعتمد على كثير من الغين وأخواتها، وتعمّدَت، دائماً، إظهار احترامها وتفهّمها للضحايا. كانت صبورة تلتمس لهم الأعذار إن هم قسوا عليها وجاروا.

حاول الجنود الاعتداء عليها في أكثر من موقع ومعسكر. سمعتهم، مراراً، يشتمونها بأقذر الشتائم ويبصقون عليها. في البداية كنت أثور وأجيبهم بصاعين من صراخ، لكنها أقنعتني بضرورة إهمالهم، فصرنا "نخطو على مهل"؛ بسماتنا لا تنقطع، قاماتنا منتصبة، صدوراً مندفعة كالحق، وخبطات أقدامنا ندقّها بشدة كأن تحتها رأس أفعى.

معها، معكِ يا "فولا"، زَرَعتُ فلسطين المحتلة طولاً وعرضاً، دفاعاً عن الحقوق المنتهكة، كي نقدم حكاية حب وحرية، أبطالها الفلسطينيون والفلسطينيات الأحرار.

فيليتسيا لانغر لم تكن مجرد محامية دافعت وأعطت لفلسطين، بل هي إنسانة فريدة ونادرة أيضاً.

ستترك فيليتسيا بلدها ليكون غيابها نوعاً من التظاهر والتعبير عن يأسها واشمئزازها من النظام العنصري الذي عمل على كبح رسالتها، لكنها قررت ألاّ تكون ورقة التين لهذا النظام الإسرائيلي.

لم تكن فيليتسيا يوماً ورقة التين لسياسات إسرائيل، وإنما كانت أول مَن أسقط جميع الأقنعة عن وجه "الغولة"، على الرغم من أنها لم تعترف بذلك. لقد هاجرت بسبب فقدانها الأمان في مجتمعها. انتفضت المحامية لانغر من حطام حلمها، وعادت إلى قلق المنافي كي تناضل من جديد، فتدافع عن قيمها الإنسانية، وتفضح جرائم الاحتلال وأكاذيبه.

أختم بوصف قدمه رفيقها الشاعر شكيب جهشان، قال فيه:

باقة ورد جوري/أسراب يمام بيساني/
رف سنونو/صدر معطاء ميمون
كعباب التين/فيليتسيا /دفق أمومه/
در حليمه/ورحيل دائم صوب النور/
مدفأة في كانون/وضياء رفاق خلف
الديجور.■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

**سيرة جابي برامكي وتجربته في جامعة بير زيت**

**(١٩٢٩ ـ ٢٠١٢)**

**عبد الرحيم الشيخ**

٣٧٥ صفحة ١٢ دولاراً